محاضرات في مناهج المحدثين

المناهج لغة : جمع منهج ، وهو الطريق الواضح ، ونهج الطريق أي سلكه ، ولنهج فلان سبيل فلان أي سلك مسلكه قال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ المائدة / ٤٨ ، أي طريقاً واضحاً .

المناهج اصطلاحاً : هو العلم الذي يكشف لنا طريقة المصنف في كتابه من حيث الترتيب والتبويب ، واختيار الشيوخ والطرق ، أو هي الطرق التي يسلكها المحدثون في رواية الأحاديث ، والتعليق عليها ، وتصنيفها بحسب شروط معينة .

فوائد دراسة مناهج المحدثين :

لدراسة مناهج المحدثين فوائد عديدة ، لا يمكن أن يستغني عنها المتخصص خلال دراسته وأبحاثه من أهمها :

١. تعريف الدارسين بنشأة التصنيف في الحديث النبوي ، وتطور التأليف فيه ، فيقف الباحث على جهود المصنفين في جمع السنن والآثار ، وحفظها من الضياع .
٢. التعرف على عدد من أمهات كتب الحديث ، وأشهر المصنفين ، وسبيل الإفادة منها ، والرجوع إليها ، بما يساعد الباحث في حياته العلمية .
٣. تُمكّن الدارس من التعرف على مناهج المحدثين في كتب الحديث ومصادره والتعرف على القواعد والأسس والشروط التي التزم بها كل منهم في مصنفه .
٤. إن دراسة مناهج المحدثين تفيدنا في التعرف على شروط أصحاب المصنفات ، وبالتالي على أحكامهم ، وتمييز المعتدل من المتشدد والمتساهل منهم ، فما يصححه ابن حِبان قد لا يصححه البخاري ، وما يصححه الحاكم قد لا يوافقه على تصحيحه الذهبي .
٥. إن دراسة المناهج تساعد على تنمية التفكير العلمي والمنهجي لدى الدارس وتكسبه مهارة في البحث ، وتُوجد عنده روح الإبداع والرغبة في التطور وفق أسس علمية مدروسة ومناهج دقيقة .

تعريف الحديث وبيان أهميته :

الحديث لغة لع معنيان

الأول : اسم للتحديث وهو الإخبار ، وواحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعاً للحديث ، ومنه ما شاع على الألسنة (صار أحدوثة) أو (صار حديثاً) إذا ضرب به المثل .

الثاني : ما يقابل القديم وهم يريدون بالقديم كتاب الله وبالجديد ما أضيف إلى رسول الله ρ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (المراد بالحديث في عرف الشرع ما يضاف إلى النبي ρ وكأنه أريد به مقابلة القرآن لأنه قديم) .

الحديث اصطلاحاً : الحديث في اصطلاح المحدثين على أربعة أقوال :

الأول : ما أضيف إلى النبي ρ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية وما أضيف إلى الصحابة والتابعين ، فيكون شاملاً للمرفوع والموقوف والمقطوع.

الثاني : ما أضيف إلى النبي ρ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية وما أضيف إلى الصحابة والتابعين ، فيكون شاملاً للمرفوع دون الموقوف والمقطوع .

الثالث : ما أضيف إلى النبي ρ من قول أو فعل فقط .

الرابع : هو ما ورد عن المعصوم من قول أو فعل أو تقرير .

أهمية الحديث النبوي :

ترجع أهمية الحديث أو السنة النبوية إلى أنها المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم ، وهي لا تخرج عن ثلاثة مقاصد :

١. السنة البيانية : وهي التي تكون مبينة ومفصلة لما ورد في القرآن الكريم مجملاً ، كإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، فالسنة هي التي بينت الأوقات والمقدار ، والصحيح والفاسد .

٢. السنة المؤكدة : وهي السنة المقررة لما أمر به القرآن ، كالتوحيد ، والعدل والإحسان ، وأداء الأمانات ، ولما نهى عنه القرآن ، كالقتل ، والزنا ، وشهادة الزور .

٣. السنة التي أثبتت أحكاماً لم يذكرها القرآن صراحة ، كتحريم أكل كل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطيور ، وان الرضاع يحرم به ما يحرم من النسب .

الحديث في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

تمهيد

لم تعن الأمم السابقة للإسلام بنقل الروايات التاريخية والنصوص الدينية بالأسانيد المتصلة ، وبالتحري لمعرفة رجال تلك الروايات ودرجاتهم من العدالة والضبط بل كانت النصوص تروى على علاتها ، وكانت الأديان والمذاهب يعول فيها على التلقي من أفواه النقلة وكتاباتهم ، دون سؤال عن الإسناد فضلا عن دراسته وبحثه. ولما جعل الله سبحانه هذا الدين خاتمة الرسالات السماوية ، تعهد بحفظه وصيانته فاختص هذه الأمة بأن وفقها لحفظ كتاب ربها ، وصيانة حديث نبيها ρ فإذا بها تبتكر لحفظ الحديث قواعد المصطلح على أدق منهج علمي يمكن أن يوجد للاستثبات والاستيثاق من النصوص المروية وتمحيصها .

فانصرفت جماعة من علماء الأمة إلى البحث عن الإسناد والعناية به ، وكانت الريادة في ذلك لعلماء الحديث ، الذين كانوا أول من أوجد علم تحقيق الأخبار ، أو علم مصطلح الحديث ، الذي يعد بحق من أثمن ما خلفته الثقافة الإسلامية ، وتعد قواعده من اصح وأدق ما عرف في التاريخ من القواعد العلمية لتحقيق الروايات والأخبار ، وقد تفرد به المسلمون دون غيرهم .

وبهذا يتضح لنا ان الجهد الذي بذل في تنقيح الحديث الشريف لا مزيد عليه ، اذ كان متلائماً مع مكانة الحديث كمصدر للتشريع ، وليس مجرد نص تأريخي ، كالنصوص التي تعزى للقادة والزعماء .

منهج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في تعليم أصحابه :

كان الرسول ρ معلماً وحاكماً وقاضياً ومفتياً طيلة حياته ، فكان كثيراً ما يجلس في المسجد ، ويلتف حوله الناس يسألونه في توضيح امور دينهم ، فيقوم ρ بتوضيحها لهم ، وشرحها بشكل مبسط ، ويمكن تلخيص ذلك المنهج فيما يتعلق بالحديث في النقاط الآتية :

١. التدرج في التعليم : كما أن أحكام القرآن لم تنزل دفعة واحدة كمجموعة من الشرائع بل استمرت طوال فترة حياته ، كذلك كانت السنة النبوية تراعي التدرج في انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة التي كان عليها الناس في الجاهلية ، وتثبت بالتدرج العقائد الصحيحة والعبادات والأحكام .

٢. ميادين العلم : لم يقتصر الرسول ρ في تعليم أصحابه على مكان معين ، ولا على مناسبة معينة ، فكان يحدثهم في المسجد والبيت والسوق ، وكان يُستفتى في الطريق فيُفتي ، ويسأل في المناسبات المختلفة فيجيب ، فكان من أهم ما يميز منهجه في التعليم أنه كان يبلغ الإسلام في كل فرصة تسنح له ، وفي كل مكان يراه مناسبا للحديث .

٣. مراعاة المستويات المختلفة : لم يقتصر ρ في تعليمه على مجموعة من الناس ، وإنما كان مهتماً بتعليم أمته جميعاً ، فهو يعلم الصغير والكبير ، وخير مثال على ذلك تعليمه عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في الحديث المشهور ((يا غلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك . . . .)) الحديث .

٤. حسن التربية والتعليم : كان الرسول ρ مثال المربي والمعلم والمرشد ، فقد كان يعامل الناس جميعاً معاملة طيبة ، فكان لهم أخاً متواضعاً ، ومعلماً حليماً بل كان أباً رحيماً ، فإذا ما أراد أن يعلم أصحابه بعض الآداب خاطبهم بألين خطاب وأحبه إلى نفوسهم .

٥. المخاطبة على قدر عقولهم ، كان الرسول ρ يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فكان خطابة لهم بما يدركون ، فيفهم صاحب البادية بما يلائم بيئته ، ويفهم الحضري كذلك .

الحديث في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

كانت الجهود في عهد النبي ρ منصبة في تلقي القرآن الكريم وحفظه وتدوينه ، باعتباره المصدر الأول للتشريع والمعجزة الكبرى الخالدة لهذا الدين بما اشتمل عليه من الألفاظ والمعاني التي يجب الحفاظ عليها والاحتياط لها من يزداد عليها أو ينقص منها .

وحفظ الحديث كان متمشياً جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام ، وقد قام بعض الكاتبين بتقيد جميع ما سمعه ورآه من النبي ρ وأقرهم على ذلك حين أمن التباس السنة بالقرآن ، على حين كتب أفراد آخرون أشياء قليلة ، وظل سائرهم بين قارئ كاتب لكنه مشغول بالقرآن شغلاً لا يتيح له كتابة الحديث ، ولا يجد الحاجة لتقييده، وبين أمي يحفظ من القرآن والحديث ما تيسر له في صدره، وهو ما كان عليه أكثر الصحابة في بدء الإسلام ومطلع فجره .

وانصرف الصحابة إلى القرآن جمعا له في الصدور والسطور، واشتغالهم به عن كل شيء سواه كان جزءا من التوجيه النبوي الحكيم ، وهو توجيه متدرج مع الحياة ، ومتطور مع الأحداث التي تعاقبت على المجتمع الإسلامي ، فما كان لهذا التوجيه أن يجمد على صورة واحدة بل روعي فيه الزمان ، وروعيت الأشخاص فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كتابة الأحاديث أول نزول الوحي مخافة التباس أقواله وشروحه وسيرته بالقرآن، ولا سيما إذا كتب هذا كله في صحيفة واحدة مع القرآن وقال ((لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه)) .

وقد وردت أحاديث أخرى في الإذن بالكتابة كثيرة منها :

إن الرسول ρ قيل له ((إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ، قال اكتبوا ولا حرج)) .

ومنها أن رجلاً من هل اليمن طلب يوم فتح مكة من الصحابة أن يكتبوا خطبة النبي ρ فاستأذنوا النبي في ذلك فقال ((اكتبوا لأبي شاه)) .